أبواب الصِدْق

في معرفة النفس .
في معرفة العدوّ .
في الورع .
في الحلال الصافي .
في الزهد .
في التوكل على الله .
في الخوف من الله .
في الحياء من الله .
في شكر الله .
في المحبة .
في الرضا .
في الشوق إلى الله .
في الأنس بالله .

باب
الصدق فى معرفة النفس والقيام عليها

قال الله عزّ وجلّ : (يَاأَيُّها الذينَ آمنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالقِسْطِ شُهدَاءَ لله وَلَوْ عَلى أنفُسِكُم أو الوالِدَيْنِ والأقْربينَ[1]) .

وقال تعالى فى قصة يوسف ، عليه السلام ، حين يذكر عنه : (وما أُبَرِّئُ نَفْسِى إنّ النَّفْسَ لأمَّارة بالسُّوءِ إلا مارحِمَ ربِّى[2]) .

وقال تعالى : (وأما من خاف مقامَ ربِهِ ونهى النَّفْسَ عنِ الهوىَ ، فإنَّ الجنَّة هىَ المأوى[3]) .

وقال رسول الله ﷺ : « أعدى عدولك : نفسك التى بين جنبيك ، ثم أهلك ، ثم ولدك ، ثم الأقرب فالأقرب[4]) .

ويرى عنه ﷺ أنه قال « نفس إن قبقبها[5] ونغْمَتها[6] ذمته غداً عند الله » .

---

(١) سورة النساء : ١٣٥ .
(٢) سورة يوسف : ٥٣ .
(٣) النازعات : ٤٠ ، ٤١ .
(٤) عداوة النفس لأنها أمارة بالسوء إلا مارحم ربى . وعداوة الأهل ، لعلها من ناحية الفتنة ، إنما أموالكم وأولادكم فتنة ؛ أو أن ذلك محمول على البعض دون الكل ، وإن من أزواجكم وأولادكم عدوًّا لكم فاحذروهم .
(٥) أطاعها فى شهوتها الجنسية .
(٦) أجابها إلى ماتشتهى من الشراب والسماع .

قيل له : وماهى ؟

قال : « أنفسكم التى بين جنبيكم » .

فمن صفة الصادق فى القصد إلى الله تعالى : أن يدعو نفسه إلى طاعة الله تعالى ، وطلب مرضاته ، فإن أجابته حمد الله ، تعالى ، وأحسن إليها .

فهكذا يروى عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، أنهم رأوه يوطئ[1] شيئاً يفترشه .

فقيل له : ما هذا ؟

قال : نفسى إن لم أحسن إليها لم تحملنى .

وإن لم تجبه إلى ما يرضى الله ، ورآها بطيئة ، منعها محبوبها من العيش ، وخالفها عندما تهوى ، وعاداها فى الله ولله ، وشكاها إلى الله ، حتى يصلحها له .

ولا يقيم على ذمّها مع الإحسان إليها ، وذكر عيوبها والذم لها ، وما لا يرضاه من فعلها ، مع الإقامة معها على الذى تهواه من الفعل .

وهكذا يروى عن بعض العلماء أنه قال :

« قد علمت أن من صلاح نفسى علمى بمفاسدها » .

وكفى بالمرء إثما أن يعرف من نفسه عيباً لا يصلحه ، وليس منتقلا من ذلك إلى توبة .

---

(١) يهيئ .

وقال بعض العلماء : إن كنت صادقاً فى ذمّك لنفسك : فإنّ ذمّك غيرك بما فيك فلا تغضب .

وإذا نازعتك نفسك إلى شيء من الشهوات ، أو شغل قلبك فى طلب شيء مما حرم عليك وحلى لك ، فاتهمها تهمة من يريد صلاحها ، وامنعها من ذلك منع من يريد استعبادها ، واحملها بالامتناع عن الملاذ على اللحوق بمن تقدمها .

فإن الذى نازعتك إليه : لا يخلو من أن يكون حراماً تستحق به السخط ، أو حلالا ، تستوجب به طول الوقوف على المساءلة إذا مضى التاركون للحرام إجلالا له وتعظيماً له ، ووقفوا عن الحلال للانكماش [1] والمبادرة .

فاعمل فى قطاع نفسك عن الحالين جميعاً ، فإنّ من قطم نفسه عن الدنيا ، كان رضاعه من الآخرة ، ومن اتخذ الآخرة أمًّا : أحبّ برّها والورود عليها .

إذا رضى أبناء الدنيا بالدنيا أمًّا ؛ وبرّوها ؛ وسعوا من أجلها ، فارم المؤثرين للدنيا من قلبك بالهجران ، مع النصيحة لهم وتحذيرهم إياها .

واحذر التخلف عن السابقين ، وانظر فى خاصّة نفسك ، وحثّ على ذلك أصفياءك وبطائنك ، فإن السابقين شمروا وشدّوا المآزر ،

(١) لعل المقصود : للانكماش عن طول الحساب والمبادرة إلى الجنة .

وكشفوا عن الرءوس والسوق[1] ، فاغتنموا الصحة ، وبادروا فى النشاط ، ورعوا حقّ الله تعالى ، وحذروا أن يهتكوا ستراً مما نهاهم عنه ، وتحبّبوا إليه برفض ماأباح لهم أخذه ، وتركوا الحرام تعبداً ، والحلال تقرّباً ، وألفوا السهر والظمأ ، وأنِسُوا إلى التبلّغ والاجتزاء باليسير .

باب
الصدق فى معرفة عدوك : إبليس

قال الله ، عزّ وجلّ : (إنَّ الشَّيطَانَ لَكمْ عدُوٌّ فاتخِذُوهُ عدُوًّا ، إنما يدعو حِزبهُ ليكُونوا من أصحابِ السَّعيرِ »[2] .

وقال ، جلّ وعزّ : (يابنى آدم لايَفتنَّكمُ الشيطانُ كما أخرجَ أبويكمْ من الجنَّة)[3] .

وقال تعالى : (وزيَّنَ لهم الشَّيطانُ أعمالهمْ ، فَصدَّهُمْ عن السَّبيلِ)[4] .

وقال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : « للملَك لِمَّة وللشيطان

---

(١) كناية عن الاجتهاد .

(٢) سورة فاطر : ٦ .

(٣) سورة الأعراف : ٢٧ .

(٤) سورة النمل من الآية : ٢٤ .

لِمَّة : فلمة الملك : إيعاد بالخير ، ولمَّة الشيطان : إيعاد بالشرّ » .

وقال فى خبر آخر : « إنّ الشيطان جاثم على قلب ابن آدم ، فإذا ذكر الله خنس [1] ، وإذا غفل وسوس » .

فاقطع مادّته بالعزيمة على مخالفة هواك ، وامنع نفسك من الإفراط والتشوف [2] ، فهما خير أعوانه عليك ، وبهما يقوى كيده ، وإذا اتبعتهما فأحضر عقلك وعلمك الذى علمك الله تعالى ، فقم بهما على نفسك ، وراع قلبك وما يقع فيه ، فما كان من أجناس الخير والعلم فاتبعه ، وما كان من جنس الباطل والهوى فانفه بالسرعة ، ولا تماد على الخطرة [3] ، فتصير شهوة ، ثم تصير الشهوة همة [4] ، ثم تصير الهمة فعلاً .

واعلم أن عدوك إبليس لايغفل عنك فى سكوت ولا كلام ، ولا صلاة ولاصيام ، ولا بذل ولامنع ، ولاسفر ولاحضر ، ولاتفرد ولاخلطة ، ولافى توقر [5] ولاعجلة ، ولا فى نظر ولافى غض بصر ، ولافى كسل ولافى نشاط ، ولا فى ضحك ولا فى بكاء ، ولا فى إخفاء ولا فى إعلان ، ولا حزن ولا فرح ، ولا صحة ولاسقم ، ولا مسألة

---

(١) انقبض وانزوى .

(٢) التعلق بالآمال .

(٣) مايجرى فى القلب من تدبير أمره .

(٤) أول العزيمة أو العزيمة ، والهم بالفتح وحذف الهاء كذلك ، ويحكى ابن فارس (الهم ماهممت به إذا أردته ولم تفعله) ولعله هنا يتطابق مع ماذكره ابن فارس .

(٥) اتزان ورزانة .

ولاجواب ، ولا علم ولاجهل ، ولابعد ولاقرب ، ولا حركة ولا سكون ، ولا توبة ولا إسرار .

ولن يألو جهداً فى توهين عزمك ، وفتور نيتك ، وتأخير توبتك ، ويسوِّف بك وقتاً إلى وقت ، ويأمرك بتعجيل مالا يضرك تأخيره ، يريد بذلك قطعك من الخير ، ثم يذكرك فى وقت شغلك بالبر والطاعة ، الحوائج ليقطعك عن خير أنت فيه .

وربما حبب إليك النقلة من بلد إلى بلد ، يوهمك أن غير البلد الذى أنت فيه أفضل ، ليشغل قلبك ، ويعطل مقامك بما يعقبُك الندم إذا أنت فعلته .

فاحترس من عدوك أشد الاحتراس وتحصن منه بالملجأ إلى الله عز وجل ، فإنه أمنع الحصون ، وأقوى الأركان ! فاجعل الله تعالى كهفك وملجأك ، واحذر عدوّك عند الغضب والحدة ، فإنك ، إن استقبلك فى هيج الغضب ، ذكر الله تعالى ، وعلمتَ أنه شاهدك ، أطفأت بمراقبته نيران العزّ [1] وتوقد الحمية ، أجللت من قد علمت : أنه يراك من أن تحدث فى غضبك ما تستحق به غضبه ، فإن الشيطان يغنم منك هيج الغضب وحمية الشهوة .

وأما حذرك إياه عند الحدة ، فإنه يقال : إن الشيطان يقول : «إن

---

(١) القوة

الحديد من العباد لن نيئس منه ، ولو كان يحيى بدعائه الموتى ، لأنه تأتى عليه ساعة يجتد ، فنصير منه إلى مانريد »[1] .

« ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم » .

باب
الصدق فى الورع واستعمال التَّقيَّة

فالصدق فى الورع : هو الخروج من كل شبهة ، والترك لكل ما اشتبه عليك من الأمور .

فهكذا يروى عن النبى ، صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « لا يكون العبد من المتقين حتى يدع مالا بأس به مخافة مابه بأس »[2] .

قال ﷺ : « الحلال بيّن والحرام بيّن ، وبين ذلك أمور مشتبهات فمن ترك الشبهات مخافة أن يقع فى الحرام فقد استبرأ لعرضه »[3] .

(١) ولهذا ، لما ذهب رجل إلى النبى ﷺ ، فقال له : أوصنى قال : لاتغضب ، كرر ذلك ثلاثاً .

(٢) رواه ابن ماجه والترمذى .

(٣) وفى رواية أخرى : « الحلال بيّن ، والحرام بيّن وبينهما أمور متشابهات لايعلمها كثير من الناس . فمن اتقى الشبهات : فقد استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع فى الشبهات فقد وقع فى الحرام : كالراعى يرعى حول الحمى ، يوشك أن يقع فيه ، ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله محارمه ، ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب » .

وقال ابن سيرين ، رحمة الله عليه : مافى دينى شيء أيسر من الورع . كل مااشتبه عليه تركته .

وقال الفضيل ، رحمه الله ، يقول الناس : الورع شديد ؛ دع مايريبك إلىمالا يريبك ، فخذ ماحل وطاب من الأشياء ، وابذل المجهود فى طلب الشيء الصافى من الحلال .

لأن الله عز وجل ، قال : «يأيُّها الرُّسلُ كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً »[1] .

وقال النبى ﷺ ؛ لسعد ، رضى الله عنه : « إن أردت أن يجيب الله تعالى دعاءك ، فكل الحلال »[2] .

وقالت عائشة ، رضى الله عنها : « يارسول الله ، من المؤمن ؟ قال : من إذا أمسى نظر من أين قُرْصه »[3] .

---

(١) سورة المؤمنون : ٥١ .

(٢) وفى حديث آخر : أن النبى ﷺ « ذكر الرجل يطيل السفر ويرفع يديه إلى السماء بالدعاء ، يقول : يارب ، يارب ، ومأكله حرام ، وملبسه حرام ، فأنى يستجاب له ؟ » .

(٣) قرصه : رغيفه . أى من أين أكله .

باب
الصدق فى الحلال الصافى ، إذا وجدته ، وكيف العمل به ؟

فالصدق فى الحلال – إذا وجدته – : أن تأخذ منه مالا بدّ منه على قدر معرفتك بنفسك ، وما يقيم مَيلَها ، ولا تحمل عليها فوق طاقتها فتنقطع ، ولا تصبر معها إلى ماتهواه من السرف ، ولكن خذ مايقيمك بلا تقتير ولا سرف فى الطعام واللباس والمسكن ، واحذر الفضول مخافة الحساب وطول الوقوف .

فهكذا يروى : أنّ رجلاً قال لعلى بن أبى طالب ، رضى الله عنه : « يا أبا الحسن ، صف لنا الدنيا فقال : حلالها حساب وحرامها عذاب أو عقاب » .

فإذا كان العبد ضعيفاً[1] ، ثمّ ملك الشىء الطيب ، حبسه على نفسه وعلى مَن يمون[2] ، فأنفق منه بالمعروف مخافة أن يكون ، إذا أخرجه لم يصبر ، وجزع ؛ فوقع فيما هو أردى منه ، فكان فى حبسه إياه

---

(١) ضعيف العزيمة والسكون إلى الله .

(٢) يعول .

مزرياً [١] ، على نفسه من ادّخاره ، حين عدم من نفسه الثقة بالله تعالى ، والسكون إليه دون الشيء ، فيكون كذلك حتى يقوى عزمه .

قلت : فكيف مَلَكَ الأنبياء ، عليهم السلام ، الأموالَ والضياعَ ، مثل داوُدَ ، وسليمانَ ، وإبراهيم ، وأيُّوب ، ونظرائهم ، ويوسفَ عليه السلام ، على خزائن الأرض ، ومحمد ﷺ ، والصالحين من بعد ؟

فقال : هذه مسألة كبيرة ، وفيها كثير ؟

اعلم أنّ الأنبياء ، عليهم السلام ، والعلماء ، والصالحين من بعدهم ، رضى الله عنهم أمناءُ الله تعالى ، فى أرضه على سرّه وعلى أمره ونهيه وعلمه ، وموضع وديعته ، والنصحاءُ له فى خلقه وبريته ، وهم الذين عَقَلوا عن الله تعالى ، أمره ونهيه ، وفهموا لماذا خلقهم ، وما أراد منهم ، وإلى ماندبهم [٢] ؟ فوافقوه فى محبته ، ونزلوا فى الأمور عند مشيئته ، ثم وقفوا عند ذلك مواقف العبيد الألباء ، القابلين على الله ، والحافظين لوصيته ، وأصغوا إليه بآذانِ فَهُومِهم الواعية ، وقلوبهم الطاهرة ، ولم يتخلفوا عن ندبته [٣] ، فسمعوا الله ، عزّ وجلّ ، يقول : ﴿ آمِنُوا باللهِ ورَسُولِه ، وأنفقوا مما جعلكمْ مسْتخْلفِينَ فِيهِ ﴾ [٤] . ثم

---

(١) منكراً على نفسه فعلها إذا اطمأنت إلى الشيء وعدمت الثقة بالله ، ويستمر فى إنكاره عليها حتى يقوى عزمه .

(٢) دعاهم .

(٣) دعوته .

(٤) سورة الحديد : ٧ .

قال : (ثُم جعلْنَاكم خلائِفَ فى الأرضِ ، مِنْ بَعْدِهِمْ ، لننْظُرَ كَيْفَ تعملونَ »[1] .

وقال تعالى : (لله مافى السَّمواتِ ومافى الأرْضِ)[2] .

وقال تعالى : (ألا لهُ الخلقُ والأمرُ) .

فأيقن القوم : أنهم وأنفسهم لله تعالى ، وكذلك ماخولهم وملكهم ، فإنما هو له ، غير أنهم فى دار اختبار وبلوى ، وخلقوا للاختبار والبلوى فى هذه الدار .

وهكذا يروى عن ابن الخطاب ، رضى الله عنه ، حين سمع : (هل أتى على الإنْسَانِ حِينٌ منَ الدّهْرِ[3] لم يكُنْ شيئاً مذكُوراً)[4] .

قال : ياليتها تمّت ؟ ! يعنى عمر ، قبل قراءة : (إنَّا خلقنا الإنْسَانَ مِنْ نُطفةٍ أمشاج نبتليهِ) : فَهَمهمْ ، يقال فى التفسير : عجز فى التلاء عجزاً[5] .

ومعنى قول عمر رضى الله عنه : « ياليتها تمّت » يعنى : لم يخلق ، حين سمع الله تعالى ، يقول : (لم يكُنْ شيئاً مذكُوراً) .

(١) سورة يونس : ١٤ .

(٢) سورة البقرة : ٢٨٤ .

(٣) وقت من الزمن .

(٤) سورة الدهر .

(٥) عجز عن مواصلة القراءة ، وهو تفسير لهمهم .

وذلك من معرفة عمر ، رضى الله عنه ، بواجب حق الله ، وقدر أمره ونهيه ، وعجز العباد عن القيام به ، وقيام الحجّة لله تعالى عليهم ، عند تقصيرهم ، وما تواعدهم به ، إذا ضيعوا .

ويروى عن الحسن . رضى الله عنه أنه قال : « إن الله تعالى ، إنما أهبط آدم ، عليه السلام ، إلى الدّنيا عقوبة ، وجعلها سجناً له ، حين أخرجه من جواره ، وصيره إلى دار التعب والاختبار » .

فمن ملك – من أهل العمل عن الله تعالى ، وأهل الصدق – شيئاً من الدنيا فهو معتقد أنّ الشيء لله جلّ وعزّ ، لا له ، إلا هو من طريق حقّ ماخوّله[1] الله تعالى ، وهو مُبلى به حتى يقوم بالحقّ فيه ، لأنّ النعمة بلاء حتى يقوم العبد بالشكر فيها ، ويستعين بها على طاعة الله تعالى .

وكذلك البلوى والضراء : هو اختبار وبلاء ، حتى يصبر عليه ، ويقوم بحق الله تعالى فيه .

وكذلك قال بعض الحكماء : « العلم كله بلاء حتى يعمل به » قال الله ، عزّ وجلّ : « الذِى خلقَ المَوْتَ والحياةَ ، لِيبْلوكُم »[2] .

وقال : « ولنبلونَّكُم ، حتى نعلَم المجاهِدينَ مِنْكُم والصَّابِرينَ ، ونبلوَ أخباركُم »[3] .

---

(١) ماخوله : ماأعطاه .

(٢) سورة الملك .

(٣) سورة القتال : ٣١ .

فالأنبياء صلوات الله عليهم ، والصالحون ، من بعدهم ، الذين أشعرهم الله بأن أبلاهم فى الدنيا بالسعة ، وخولهم ، كانوا إلى الله ، جلّ وعزّ ، ساكنين ، لا إلى الشئ ، وكانوا خزّاناً لله ، جلّ ذكره ، فى الشىء الذى ملكهمْ ، ينفذونه فى حقوق الله تعالى ، غير مقصرين ، ولا مفرطين ، ولا متوانين ، ولا متأولين على الله التأويل ، وكانوا غير متلذّذين بما مُلّكوا ، ولا مشغولى القلوب بما ملكوا ، ولا مستأثرين به دون عباد الله تعالى .

ومن ذلك ما روى عن سليمان بن داود عليهما السلام ، فى ملكه ، وما أباحه الله تعالى من الكرامة ، حين يقول تعالى :

« هذا عطاؤنا ، فامنن أوامسك بغير حساب »[1] .

قال أهل التفسير : لا حساب عليك فى الآخرة ، وإنما كان عطاء هيناً إكراماً من الله ، عز وجل له .

فذكر العلماء : أن سليمان عليه السلام : « كان يطعم الأضياف الحوارى[2] النقى ، ويطعم عياله الخشكار[3] ويأكل هو الشعير » .

وكذلك روى العلماء : أن إبراهيم الخليل ، صلوات الله عليه : « كان لايأكل إلا مع الضيف ، فربما لا يأتيه ثلاثة أيام الضيف

---

(١) سورة ص : ٣٩ .

(٢) الحوارى : لباب البر وخالص الدقيق .

(٣) الخشكار : خشن الدقيق .

فيطويها . وربما كان يمشي الفرسخ[1] . أو أقل أو أكثر . تلقياً للضيف » .

قال : « وكان أيوب النبي ، ﷺ ، لا يسمع أحداً يحلف بالله تعالى ، إلا رجع إلى منزله فكفر عنه »[2] .

وروى العلماء : أن يوسف ، عليه السلام : كان على خزائن الأرض ، فكان لايشبع . فقيل له في ذلك ، فقال : « أخاف أن أشبع فأنسى الجياع » .

ولقد روى أن سليمان ، عليه السلام : « بينما هو ذات يوم ، والريح تحمله ، والطير تظله ، والجن والإنس معه ، وعليه قميص جديد ، فلصق ببدنه ، فوجد اللذة ، فسكنت الريح ووضعته على الأرض .

فقال لها : مالك ؟

فقالت : إنما أمرنا أن نعطيك ماأطعت الله .

ففكر في نفسه من أين أتى ؟ فذكر ، فراجع ، فحملته الريح » .

ولقد روى : « أن الريح كانت تضعه في اليوم مرات ، من هذا وأشباهه ! ! » .

فالقوم : كانوا خارجين من ملكهم في ملكهم ، ناعمين بذكر الله وعبادته ، غير ساكنين إلى ماملكوا ، لا يستوحشون من فقده إن

---

(١) الفرسخ : ثلاثة أميال .

(٢) خشية أن يكون قد حنث في يمينه وشفقه عليه .

فقدوه ، ولا يفرحون بالشيء ، ولا يحتاجون إلى العلاج والمجاهدة في إخراجه .

قال الله تعالى ، للنبي ﷺ : (أولئك الذين هدى الله فبهداهُم اقتده[1]) .

وهذا النبي ، ﷺ : « بينما جبريل ، عليه السلام ، عنده ، إذ تغير جبريل ، فإذا ملك قد نزل من السماء لم ينزل قط ، فقال جبريل عليه السلام : خشيت أنه نزل فيَّ بأمر ، فجاء إلى النبي ﷺ ، بالسلام من عند الله عزّ وجلّ ، وقال له : هذه مفاتيح خزائن الأرض ، تسير معك ذهباً وفضة ، مع البقاء فيها إلى يوم القيامة ، ولا تنقصك ممالك عند الله شيئاً ، فلم يختر النبي ، ﷺ ، ذلك ، وقال : أجوع مرة وأشبع مرة »[2] .

وعدّ ذلك من الله ، عز وجل ، بلوى واختباراً ، ولم يره من الله تعالى ، اختياراً ، ولو كان من الله تعالى ، اختياراً : لقبله ، ولكنه علم أن محبة الله تعالى : في الترك للدنيا والإعراض عن زينتها وبهجتها .

وبذلك أدبه الله تعالى ، حين قال تعالى : (ولا تمدَّن عينيكَ إلى ما

---

(١) سورة الأنعام : ٩٠ .

(٢) وجاء في الأحاديث : « خيرت بين أن أكون ملكاً رسولاً أو عبداً رسولاً فاخترت : أن أكون عبداً رسولاً » وفي حديث آخر ، في دعاء النبي ﷺ « اللهم أحيني مسكيناً وأمتني مسكيناً ، واحشرني في زمرة المساكين » .

متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدُّنيا ، لنفتنهم فيه)[1] .

ويروى عنه ، ﷺ : « أنه لبس حلة لها علم فطرحها وقال : كادت تلهيني أعلامها – أو قال ألهتني أعلامها – خذوني وأتوني بأنبجانية » .

وكذلك روى : « أنه صنع له خاتم ذهب ليختم به الكتب ، إلى من أمره الله تعالى بإنذاره ، فلبسه ثم طرحه من يده ، وقال لأصحابه : إليه نظرة وإليكم نظرة » .

وكذلك روى : « أنه ، ﷺ ، غير شراك نعله ، فجعل مكانه جديداً فقال : ردوا الشراك الأول » .

وكذلك كل قلب طاهر صاف ، قد أشرف على الآخرة ، وعرف قيام الله تعالى عليه : يفزع من خفايا السكون إلى الدنيا ، والتحلي بشيء منها .

ومثل هذا في الأخبار كثير ، والعاقل الفطن تكفيه الإشارة إليه بالشيء . وهذا أصحاب محمد ، ﷺ ، حين حثهم على الصدقة ، جاء أبو بكر بماله كله ، لأنه كان أقوى القوم ، فقال له النبي ، صلى الله عليه وسلم : ماخلفت لعيالك ؟

قال : الله ورسوله ، ولي عند الله مزيد[2] .

---

(١) سورة طه : ١٣١ .

(٢) الترمذي قال : حسن صحيح .

أفلا ترى أبا بكر ، رضى الله عنه ، إنما كان سكوناً إلى الله تعالى ، لا إلى شيء ، ولم يكن لشيء عنده قدر ، وكان ماعند الله عنده أسرّ ؟ !

فحين رأى موضع الحق لم يخلف منه شيئاً ، وقال : خلفت الله ورسوله .

ثم جاء عمر ، رضى الله عنه ، بنصف ماله ، فقال النبى ، ﷺ : ماخلفت لعيالك ؟

قال : نصف مالى ولله عندى مزيد .

فقد أعطى نصف ماله ، ويقول : ولله عندى .

ثم عثمان ، رضى اللهعنه ، يجهز جيش العسرة كله بجميع مايحتاج إليه ، ويحفر بئر رومة (١) .

أفلا ترى أن القوم ، إنما كانوا معدين الشيء لله تعالى ؟ !

ومما يدل على صدق قولنا : أن القوم كانوا خارجين مما ملكوا وهو فى أيديهم ، يعدونه لله عزّ وجلّ .

وقد روى عن النبى ﷺ : أنه قال : « إنا معاشر الأنبياء لا نورث ، وما خلفناه صدقة » .

أفلا ترى أنهم فى حياتهم : لم يضنوا بالشيء عن الله عز وجل ؟ !

وكذلك لم يورثوه ، وخلفوه لله عز وجل ، كما كان فى أيديهم لله تعالى لم يحدثوا فيه ، ولم يخولوه من بعدهم أحداً .

---

(١) الترمذى والبخارى وغيرهما .

وإن هذا لبلاغ لمن عقل عن الله تعالى وأنصف من نفسه .

وهذا أئمة الهدى بعد رسول الله ﷺ : أبوبكر ، رضى الله من حين ملك الأمر ، وجاءته الدنيا راغمة من حلها ، لم يرفع بها رأساً ، ولم يتصنع وكان عليه كساء يخلله[1] . وكان يدعى : ذا الخلالين .

وهذا عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، حين جاءته الدنيا راغمة ، من حلها ، وكان طعامه الخبز والزيت ، وفى ثوبه بضع عشرة رقعة ، بعضها من أدم ، وقد فتحت عليه كنوز كسرى وقيصر .

وهذا عثمان ، رضى الله عنه ، كأنه واحد من عبيده ، فى اللباس والزى ! ! ولقد روى عنه : أنه رؤى خارجاً من بستان له ، وعلى عنقه حزمة من حطب ، فقيل له فى ذلك ، فقال :

أردت أن أنظر نفسى : هل تأبى ؟

أفلا ترى أنه كان غير غافل عن نفسه ، وتعاهدها ورياضتها ؟

وهذا على بن أبى طالب ، رضى الله عنه ، فى الخلافة ، قد اشترى إزاراً بأربعة دراهم ، واشترى قميصاً بخمسة دراهم ، فكان فى كمه طول ، فتقدم إلى خراز[2] ، فأخذ الشفرة ، فقطع الكم مع أطراف أصابعه ، وهو يفرق الدنيا يمنةً ويسرةً !

وهذا الزبير ، رضى الله عنه ، يخلف حين مات ، من الدين مائتى

---

(١) يخيط مابه من خال وشق .

(٢) خياط .

ألف أو أكثر ، كل ذلك من الجود والسخاء والبذل !

وهذا طلحة بن عبيد الله ، رضيَ الله عنه ، يعطى حلى أهله لمن سأله !

فهذا يدل على أن القوم كانوا ، كما قال الله عز وجل ، حين أمرهم ، فقال : (أنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه[1]) .

ولا يستحى عبد من عبيد الله من أهل زماننا هذا ، عندما ملك من الشبهات التى علم الله تعالى ، كيف هى ، ومن أين هى ، وكيف قدرها فى قلبه ، وإيثاره لها ، وسكونه إليها دون الله ، عز وجل ، وما لا يحصى من عيبه ، فى تقلبه فى ذلك واشتغاله بذلك ؟

حتى أن أحدهم ليزعم : أنه يملك كما ملك من مضى ، ويحتج بهم فى اتباع هواه مع إقامته على خلاف سنة القوم .

بل الاعتراف لله تعالى ، بالتقصير من العبد الغافل أقرب إلى النجاة ، وسؤاله الله ، عز وجل أن يبلغ مابلغ بالقوم .

بل الاعتراف لله تعالى ، بالتقصير من العبد الغافل أقرب إلى النجاة ، وسؤاله الله ، عز وجل أن يبلغه مابلغ بالقوم .

وبالله التوفيق .

---

(١) سورة الحديد ٨ .

باب
الصدق فى الزهد ، وكيف هو؟ وما هو؟

ولقد فضح الله تعالى الدنيا ، وسماها بأسماء لم يسمها أحد .

فقال تبارك وتعالى : (اعلموا أنما الحياة الدُّنيا : لعبٌ ، ولهوٌ ، وزينةٌ وتفاخرٌ بينكم . . . الآية)[1] .

أفلا يستحى من يعقل عن الله تعالى ، أن يراه ساكناً إلى اللهو ، واللعب ، فى دار الغرور .

قلت : الدنيا فى نفسها ، ماهى ؟

قال : اتفق البصراء من الحكماء على أن الدنيا هى النفس وماهويت .

والحجة فى ذلك أن الله عز وجل ، قال : (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا)[2] .

فهذه الأمور التى ذكرها الله عز وجل ، هى من هوى النفس ولذتها ، وبها تلهو عن الآخرة وذكرها .

---

(١) سورة الحديد : ٢٠ .

(٢) سورة آل عمران : ١٤ .

فإذا ترك العبد ماتهواه النفس ترك الدنيا .

ألا ترى أن العبد قد يكون فقيراً لاشيء له ، وهو يتمنى الدنيا ، ويهوى مجناها ، وينوى أن لو أمكنه منها مايريد ، لتمتع بذلك ونال لذته ؟

فهو عند الله تعالى ، من الراغبين على قدر همته[1] . إلا أنه أقل حساباً ممن نالها واستمتع بها .

فأول درجات الزهد : هو الزهد فى اتباع هوى النفس ، فإذا هانت على المرء نفسه لم يبال على أى حال أمسى وأصبح ، إذا وافق محبة الله تعالى ، عند ذلك ، على مخالفة نفسه ، ومنعها من محبوبها من الشهوات واللذات والراحات ، ومقارنة الأحباء والأخدان والأصحاب من أهل الغفلة ، ومن كان منهم غويًّا على ذلك الأمر الذى يريده العبد ، فإن آفة العبد : صحبة من يريد مايريد .

ثم أخذ البلغة من الطعام والشراب واللباس والمنزل والنوم والكلام والنطق والاستماع ، وترك التمنى لشيء من الدنيا ، والحذر من تحليها .

لأن النبى ﷺ قال : « الدنيا خضرة حلوة » .

فيتوهم العبد فناءها ؛ فيقصر فيها أمله ، مع توقع الموت ، والتشوف[2] إلى الآخرة ، والشوق إلى النزول فى دار بقائها ، والعمل فى ذلك !

---

(١) عزيمته .

(٢) الطموح ببصره إليها (التطلع إليها) .

ولذلك يخلع الراحة من القلب بدوام الفكرة ، ومن البدن بدوام الخدمة .

فهذا أول درجات الزهد .

وقال سفيان الثورى ، رحمه الله تعالى ، ووكيع بن الجراح وأحمد ابن حنبل ، وغيرهم : رحمهم الله تعالى : إن الزهد فى الدنيا قصر الآمال .

وهذا يدل على ماقالت الحكماء ، لأنه من قصر أمله : لم ينعم ، وكانت الغفلة منه بعيدة .

وقالت طائفة من الناس : « الزاهد فى الدنيا هو الراغب فى الآخرة ، الذى قد جعلها نصب عينيه ، كأنه يرى عقابها وثوابها ، فهو عازف عن الدنيا » .

وهكذا يروى أن النبى ﷺ ، قال لحارثة : « كيف أصبحت ياحارثة ؟ »

« قال : مؤمناً حقاً يارسول الله »

فقال النبى ﷺ ، : « وما حقيقة إيمانك ؟ »

قال : « عزفت نفسى عن الدنيا ، فأظمأت لذلك نهارى ، وأسهرت ليلى ، وكأنى أنظر إلى عرش ربى بارزاً ، وكأنى أنظر إلى أهل الجنة يتناعمون ، وإلى أهل النار يتعاوون .

فقال النبي ﷺ : « مؤمن نور الله قلبه ، عرفت فالزم »[1] وقال بعض العلماء : الزهد خروج قيمة الأشياء من القلب .

والزهد فى الدنيا : يدق جداً ويخفى ، ولكل عبد على قدر علمه بالله تعالى زهد .

فمن نفى الرغبة فى الدنيا عن قلبه شيئاً بعد شيء ، يرى غاية الزهد ومن توانى عن نفسه ولم يخالفها عند هواها ، لم يعزف عن الدنيا ولم يشرف على الآخرة .

قال بعض العلماء : الزاهد فى الدنيا حقاً لايذم الدنيا ولا يمدحها ، ولا يفرح إذا أقبلت ، ولا يحزن إذا أدبرت[2] .

قال أبو سعيد رحمه الله تعالى : قال بعض البدلاء رحمهم الله تعالى : لايكون زاهداً مستكمل الزهد ، أو يستوى عنده الحجارة والذهب ، ولا تستوى الحجارة والذهب حتى يكون معه من الله تعالى آية ، فتحول الحجارة ذهباً ، فعندها تخرج قيمة الأشياء من قلبه .

وسمعته يقول : لم تستو الحجارة والذهب ، عند أحد من الصحابة ، رضى الله عنهم ، بعد رسول الله ، ﷺ ، إلا عند أبى بكر رضى الله عنه !

---

(١) البزاز من حديث أنس . والطبرانى من حديث الحارث بن مالك . وسندهما ضعيف .

(٢) ومن ذلك قوله تعالى : (لكى لاتأسوا على مافاتكم ولاتفرحوا بما آتاكم) الحديد : ٢٣ .

قلت : فعلى أى معنى زَهِد الزاهدون ؟ !

قال : على معان شتى .

فمنهم من زهد لفراغ القلب من الشغل ، وجعل همه كله فى طاعة الله تعالى ، وذكره وخدمته ، فكفاه الله عند ذلك .

فهكذا : روى عن النبى ﷺ أنه قال : « من جعل الهم[1] همًّا واحداً كفاه الله سائر همومه » .

وقال عيسى عليه السلام : « بحق أقول لكم : إن حب الدنيا رأس كل خطيئة ، وفى المال داء كبير .

قالوا : ياروح الله ، ماداؤه ؟

قال : لايعطى حقّه .

قالوا : فإن أعطى حقه .

قال: يكون فيه فخر وخيلاء .

قالوا : فإن لم يكن فيه فخر ولا خيلاء .

قال : يشغله استصلاحه عن ذكر الله » .

ومنهم من زهد لخفة الظهر ، وسرعة الممر على الصراط ، إذا حُبس أصحاب الأثقال للسؤال .

فهكذا روى عن النبى ، ﷺ ، أنه قال : « عُرِض علىّ

---

(١) من جعل اتجاهه إلى الله فحسب ، أو إلى التقوى فحسب : كفاه الله جميع مشاكله الأخرى .

أصحابى ، ففقدتُ عبد الرحمن بنَ عوف – أو قال احتبس علىّ – فقلتُ : مابطأك على ؟

قال : لم أزل أحاسب بِعدْل[1] مكثرة مالى ، حتى جرى منى من العرق مالو وردَتْ عليه سبعون من الإبل عطاشاً ، قد أكلت حِمْضاً[2] لصدرت[3] عنه رواء ! »

وروى عن النبى ﷺ من غير طريق أنه قال : « الأكثرون هم الأقلون يوم القيامة ، إلا من قال بالمال هكذا وهكذا ، عن يمينه وعن شماله ، ومن بين يديه ومن خلفه ، بين عباد الله » .

قال ﷺ : « مامن غنى ولا فقير إلا ود يوم القيامة أن الله تعالى ، كان جعل رزقه فى الدنيا قوتاً »[4] .

وروى أن أبو ذر عن النبى ﷺ أنه قال : « مايسرنى : أن لى مثلَ أُحد ذهباً ، أنفقه فى سبيل الله تعالى ، تأتى على ثالثة ، يكون منه عندى شىء ، إلا دينار أرصده لدين » .

ومنهم : من زهد رغبة فى الجنة ، واشتياقاً إليها ، فسلى عن الدنيا

---

(١) العدل : الذى يعادل فى الوزن والقدر .

(٢) نبت فيه ملوحة .

(٣) عادت ورجعت .

(٤) وفى ذلك أيضاً قال ﷺ : « اللهم اجعل رزق آل محمد كفافاً » وقال صلى الله عليه وسلم : « اللهم أحينى مسكيناً وأمتنى مسكيناً واحشرنى فى زمرة المساكين » .

وعن لذاتها ، حتى طال به الشوق إلى ثواب الله تعالى ، الذى دعاه إليه ، ووصفه له عز وجل[1] .

وروى فى الحديث : أن الله جل ذكره يقول : « وأما الزاهدون فى الدنيا : فإنى أبيحهم الجنة » .

وقال بعض العلماء : لاتحسنُ قراءة إلا بزهد !

وأعلى درجات الذين زهدوا فى الدنيا : هم الذين وافقوا الله تعالى فى محبته ، فكانوا عبيداً عقلاء عن الله عز وجل ، أكياساً محبين ، سمعوا الله جل ذكره ، ذَمَّ الدنيا ، ووضع من قدرها ، ولم يرضها داراً لأوليائه ، استحيوا من الله عز وجل ، أن يراهم راكنين إلى شىء ذمه ولم يرضه ، وجعلوا ذلك على أنفسهم فرضاً ، لم يبتغوا عليه من الله عز وجل جزاء ، ولكن وافقوا الله فى محبته[2] كرماً ، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً .

فأهل الموافقة لله تعالى فى الأمور : هم أعقل العبيد . وأرفعهم عند الله قدراً .

---

(١) وفى ذلك يقول الله تعالى : (تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة) الأنفال : ٦٧ . ومن ذلك قوله تعالى : (وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى) النازعات .

(٢) ومن ذلك قوله تعالى : (يحبهم ويحبونه) وقوله تعالى : (رضى الله عنهم ورضوا عنه) البينة : ٨ .

وهكذا روى عن أبى الدرداء رضى الله عنه ، أنه قال : « ياحبذا نوم الأكياس وإفطارهم ! ! كيف غنموا سهر الحمق وصيامهم ؟ ! ولثقال ذرة من صاحب تقوى ويقين : أوزن عند الله من أمثال الجبال من أعمال المغترين »[1] .

وفى هذا بلاغ لمن عقل عن الله عز وجل .

وبالله التوفيق .

وروى عن بن عمر عبد العزيز ، رضى الله عنه : أنه نظر إلى شاب مصفر فقال له : « ماهذا الصفار ياغلام ؟ » .

قال : أسقام وأمراض يا أمير المؤمنين !

قال: لتصدقنى !

قال : أسقام وأمراض .

قال : لتخبرنى !

قال : ياأمير المؤمنين ، عزفت نفسى عن الدنيا ، فاستوى عندى حجرها وذهبها ، وكأنى أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون ، وأهل النار فى النار يتعاوون[2] .

---

(١) ومن ذلك قوله ﷺ : (الله الله فى أصحابى ، فو الله لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً مابلغ مد أحدهم ولا نصيفه) .

(٢) ومن ذلك قوله ﷺ : (أطت السماء وحق لها أن تئط ، لم يبق فيها موضع أربع أصابع إلا وملك ساجد لله تعالى ، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ، ولما تلذذتم بالنساء على الفراش ، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله تعالى) .

فقال له عمر : أنى لك هذا ياغلام ؟

قال : اتق الله يفرغ عليك العلم إفراغاً [1] .

إنه لما قصر بنا عن علم ماعملنا تركنا العمل بما علمنا ، ولو عملنا ببعض ماعملناه لورثنا علماً لا تقوم له أبداننا [2] .

وروى عن أبى بكر الصديق ، رضى الله عنه : أنه استسقى ، فأتى بإناء فلما قربه إلى فمه وذاقه نحاه ، ثم بكى ، فقيل له فى ذلك .

فقال : « رأيت رسول الله ، ﷺ ، ذات يوم وهو يدفع بيديه كأن شيئاً يقع ، لا أرى شيئاً ، فقلت : يارسول الله ، أراك تدفع بيديك ولا أرى شيئاً ! فقال : نعم ، تلك الدنيا تمثلت لى فى زينتها ، فقلت : إليك عنى [3] . ! فقالت إن تنج منى فلن ينجو منى مَنْ بعدك ! »

قال أبو بكر رضى الله عنه : « فأخاف أن تكون أدركتنى » .

قال : « وكان فى الإناء الذى شرب أبوبكر ، رضى الله عنه ، منه : ماء وعسل ، فبكى إشفاقاً من ذلك » .

ويروى فى بعض الحديث : أن أصحاب محمد ، ﷺ : لم يأكلوا

---

(١) ومن ذلك قوله تعالى : (واتقوا الله ويعلمكم الله) وقوله تعالى : (ومن يؤمن بالله يهد قلبه) والآيات كثيرة جداً فى هذا الباب .

(٢) ومن ذلك قوله ﷺ : « من عمل بماعلم ورثه الله علم مالم يعلم » .

(٣) عملاً بقوله تعالى : (ولا تمدن عينيك إلى مامتّعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ، ورزق ربك خير وأبقى » طه — ١٣١ .

تلذذاً ، ولم يلبسوا تنعماً[1] .

وفى رواية : « أن أصحاب محمد ، ﷺ ، الذين اتسعوا فى الدنيا من بعده – حين فتحت عليهم من حلها – أنهم بكوا من ذلك وأشفقوا ، وقالوا : نخاف أن تكون عُجِّلت لنا حسناتنا » .

فليتق الله عبد ، ولينصف من نفسه ، وليلزم منهاج من مضى ، وليعترف بالتقصير ، ويسأل الله الإقالة !

باب
الصدق فى التوكل على الله عز وجل

قال الله عز وجل : (فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ »[2] .

وقال تعالى : (وعلى الله فَتَوَكَّلوا إنْ كُنْتُم مُؤْمِنِينَ)[3] .

وقال تعالى : (إنَّ الله يُحبُّ المُتَوَكِّلِينَ)[4] .

وروى عن النبى ﷺ ، أنه قال : « يدخل الجنة من أمتى سبعون

---

(١) لأن ذلك شأن الكافرين ، واسمع قوله تعالى : « والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام ، والنار مثوى لهم » محمد – ١٢ .

(٢) آل عمران ١٢٢ .

(٣) المائدة ٢٣ .

(٤) آل عمران ١٥٩ .

ألفاً بغير حساب ، وهم : لا يتطيرون ، ولا يكتوون ولا يسترقون ، وعلى ربهم يتوكلون »[1] .

وقال عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، عن النبي ، صلى الله عليه وسلم : « لو توكلتم على الله حق توكله : لرزقكم كما يرزق الطير : تغدو خِماصاً[2] وتروح بِطاناً »[3] .

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : « العز والغنا يجولان فى طلب التوكل ، فإذا أصاباه أوطنا » .

فالتوكل – فى نفسه ووجوده فى القلب – : هو التصديق لله عز وجل ، والاعتماد عليه ، والسكون إليه ، والطمأنينة إليه فى كل ماضمن ، وإخراج الهم من القلب بأمور الدنيا والرزق ، وكل أمر تكفل الله به ، والعلم بأن كل ما احتاج إليه العبد من أمر الدنيا والآخرة ؛ فالله مالكه والقائم به ، لا يوصله إليه غيره ، ولا يمنعه غيره مع خروج الرغبة والرهبة والخوف من القلب ممن سوى الله تعالى ، والثقة به والعلم الخالص ، واليقين الثابت : أن يد الله المبسوطة إليه ، الموفية له من كل ماطلب ، فلا يصل إليه معروف إلا من بعد أمره ، ولا يناله مكروه إلا من بعد إذنه !

---

(١) متفق عليه .

(٢) جياعاً .

(٣) رواه الترمذى وقال : حسن .

وهكذا روى عن الفضيل ، أنه قال : المتوكل على الله ، الواثق به : لا يتهمه ، ولا يخاف خذلانه .

وكذلك المتوكل على الله : إذا ملّكه الله تعالى شيئاً من أمر الدنيا وفضل عنده ، لم يدخره لغد إلا بالنية أن الشيء إنما هو لله ، وموقوف لحقوق الله ، وهو خازن من خزان الله ، فإذا رأى موضع الحاجة سارع إلى الإخراج والبذل والمواساة ، وكان فى الذى يملك وإخوانه سواء .

وإنما يجب ذلك عليه لأهل الستر خاصة ، والقرابة ، وأهل التقوى ، ثم لعام المسلمين ، إذا رآهم على حال ضرورة غيَّر نقص حالهم .

وروى عن النبي ﷺ ، أنه قال : « ليس الزهادة فى الدنيا بتحريم الحلال ، ولا بإضاعة المال ، ولكن الزهد فى الدنيا أن تكون بما فى يد الله أوْثَقَ منك بما فى يدك ، وإذا أصابتك مصيبة كنت بثوابها أفرح منك بها لو بقيت عنك »[1] .

وقال بلال رضى الله عنه : « جئت إلى النبى ، ﷺ ومعى تمر فقال : ماهذا ؟

قلت : شيء ادخرته لإفطارك .

فقال : أنفق بلال ، ولا تخش من ذى العرش إقلالاً ، أما خشيتَ

---

(١) الترمذى وابن ماجه عن أبى ذر .

أن يكون له بخار فى جهنم ! ؟ »[1] .

ويروى عن عائشة رضى الله عنها ، أنها قالت : « إنى لست كأسماء – يعنى أختها – إن أسماء لاترفع شيئاً لغد ، وأنا أجمع الشىء إلى الشىء » .

وروى عن عائشة أيضاً رضى الله عنها : « أنها فرقت الدراهم ، وهى ترفع درعها ، فقالت لها خادمتها : ألا أبقيت درهماً للحم ؟ قالت : أفلا ذكرتنى ! » .

وروت عائشة رضى الله عنها ، عن النبى ﷺ : أنه بات فى مرضه الذى قبض فيه شبيهاً بالقلق ، فلمّا أصبح قال : « مافعلت الذهبية ؟ – وكانت قيمتها ستة وخمسين درهماً – فقال : أخرجيها ، فما ظنّ محمَّد بربه لو لقيه وهذه عنده ؟ ! » .

وروى عن مسروق رحمة الله عليه ، أنه قال : « أوثق ما أكون بالله إذا قالت الخادم : ليس عندنا شىء ! »

قلت : فالتوكل على الله تعالى بالأسباب أو بقطع الأسباب ؟

قال : بقطع أكثر الأسباب ، وتتخطَّى إلى المسبِّب ، فتسكن إليه[2] .

---

(١) البزاز وأبو يعلى والطبرانى بنحوه ، وأسانيده كلها ضعيفة . وقال الهيثمى : إسناده حسن .

(٢) وفى ذلك يقول الله ، تعالى : ﴿أليس الله بكاف عبده﴾ ؟ .

قلت : وهل يتداوى المتوكل ، أو يتعالج ؟

قالْ : الأمر فى هذا على معان ثلاثة : وقد خصّ تبارك وتعالى بترك الدواء والأسباب طائفة ، لقول النبى ﷺ : « يدخل الجنة من أمّتى سبعون ألفاً بلا حساب ، هم الذين لا يكتوون ، ولا يسترقون ، وعلى ربّهم يتوكلون ! »[1] .

وقال النبى ﷺ : « ماتوكَّل من اكتوى واسترق ! »[2] .

وقال ﷺ : « من ردّته الطِّيَرَةُ فقد قارن الشرك »[3]

وقد أمر النبى ﷺ ، بالدواء والرق وأمر بالرقية . وقطع لأبىَ بن كعب رضى الله عنه ، عرقاً .

فهذا على معانى قول المغيرة بن شعبة : لم يتوكل من اكتوى واسترق من هؤلاء السبعين ألفاً ، الذين خَصَّهم النبى ﷺ ، كذلك فسّره بعض العلماء .

وما كان من سوى ذلك : فمباح لهم من سائر الناس ، وهو غير ناقص من توكلهم ، إذا كان معهم العلم والمعرفة ، وكان نظرهم إلى ربّ الداء والدواء ، إن شاء أن ينفع بالدواء ، وإن شاء أن يضرّ .

وقد يطلب شفاءه بالدواء فيكون فيه سقمه ، وقد مات غير إنسان من الدواء وقطع العرقِ ، ولما طلب الشفاء ، وقد يرجو منفعته فى الشىء

---

(١) متفق عليه .

(٢) الترمذى بنحوه وحسنه ، والطبرانى واللفظ له .

(٣) أحمد والطبرانى بسند حسن عن ابن عمرو .

فتكون فيه مضرّته . وقد يخاف الضرر من شيء ، فتكون فيه المنفعة .

فالصادق واثق متوكل على ربّه ، فإنما توكل عليه ، حين علم أنه حَسْبه من جميع خلقه ، فلم يجد فقد شيء يمنعه الله ، لأن الله حسبه وهو بالِغُ أمْرِهِ .

قلت : فمن قال : أتوكّل على الله لأكْفَى ؟

قال : لايخلو هذا القول من معنيين :

معنى : أن يكفيه مؤنة الجزع والهلع ، لأنه يتحوّل عن شيء قد قدره الله عليه أن ينزل به ، بالتوكل .

فهذا قولنا وقول من أثبت القدر .

ومن قال : إنه يكفيه ما استكفاه لامحالة مثل قوله : لايأكلنى السبع لتوكلى ، والذى يأتينى بطلب يأتينى بلا طلب ، فالتوكل يدفع عنى إذا استكفيه كل مؤنة كنت أخافها ، فليس يعجبنا هذا القول ؛ لأن المتوكل قد يُكْفَى وقد لا يكفى وتوكله غير ناقص .

قلت : مثل ماذا ؟ اشرح لى من ذلك شيئاً .

قال : نعم ، حيث ذَبحت يحيى بن زكرياء أمرأةٌ جبارة فى طشت ، ألم يكن متوكلاً ؟ ! .

وحين نُشِرَ زكرياء ، صلوات الله عليه ، بالمنشار ألم يكن متوكلاً ؟ ! .

وكذلك الأنبياء عليهم السلام ، قتلوا ونيل منهم المكروه ، وهم

أقوى الخلْق يقيناً وأصدقه .

وهذا محمد ﷺ ، حين هرب إلى الغار هو وأبو بكر رضى الله عنه ، فاختبئوا فيه ، وحين كسر المشركون رباعيّته ﷺ ، وأدموا وجهه ألم يكن متوكلاً ؟

أفلا ترى أنّ التوكل إنما هو الاعتماد على الله عزّ وجلّ . والسكون إليه ثمّ التسليم بعد ذلك لأمره . يفعلُ مايشاء ؟ !

وهكذا روى عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : « من يتوكّل على الله فهو حسبه . إن الله بالغُ أمْرِه » قال : قاض أمرَه : « قد جعل الله لكل شيء قدراً » .

قال : أجلاً ومنتهى ينتهى إليه العبد . وليس المتوكل بالذى يقول : « تقضى حاجتى » .

فهذا تفسير ابن مسعود رضى الله عنه : يخبر أن المتوكل على الله هو الذى يلجأ إلى الله تعالى . ويعلم أنه لا يتم شيء إلا من قبل الله تعالى . الذى يعطى ويمنع بقدرته . .

فالمتوكل على الله تعالى : لايستوحش فى حالة المنع . ولا يستجلب بالمتوكل الإعطاء . لأن الحرص لايعطى ولايمنع . والله جل وعز مانع ومعطى .

وقد يُعْطَى العبدُ الشيء بلا توكل . ويمنع وهو متوكل .

فقد يُرَى المجوسى . والكافر . والجاحد . والفاجر . المضيع لأمر الله

عز وجل ، الذى لاصدق له ولايقين ، فقد يرَى هازلون يكفرون ، وتقضى لهم الحوائج ، والمتوكل الصادق الموقن لاتقضى له حاجة ، حتى يموت ضراء وهزلاء !

وإنما التوكل : ترك السكون إلى أسباب الدنيا ، ونفى الطمع من المخلوقين ، والإياس منهم ، حين علم المتوكل : أنه صائر إلى المعلوم ، فرضى بالله تعالى ، وعلم أنه لايدرك بالتوكل تعجيل ما أخَّرَ الله تعالى ، ولا تأخير ما عجّل ، ولكنه اكتسب إسقاط الهلع والجزع ، واستراح من عذاب الحرص ، وراض نفسه بأدب العلم والمعرفة وقال : ما قَدَّر سيكون ، وما يكون فهو آت .

وكذلك قال بعض الحكماء : انتقم من حرصك بالقنوع ، كما تنتقم من عدوّك بالقصاص .

وقال بعض الصحابة ، رضوان الله عليهم : « دخلت على النبى ، ﷺ ، وفى البيت تمرة غابرة فقال : خذها ، لو لم تأتها لأتتك ! »

حدثنا محمّد بن يعقوب ، قال : حدثنا أحمد بن حنبل ، قال : حدثنا مروان بن معاوية قال : حدثنا المعَلى عن أنس بن مالك ، رضى الله عنه ، قال : « أهْدِىَ إلى النبى ﷺ طوائر فأطعم خادماً طائراً ، فلما كان من الغد أتيته به فقال : ألم أنهك أن تخبأ رزقاً لغد ؟ »

فهذا مالايسع الناس جهله من التوكل .

وغاية التوكل : أجل من ذلك .

باب
الصدق فى الخوف من الله عز وجل

قال الله تعالى : (وإيَّاى فارْهَبُونِ)[1] (وَإيَّاى فاتَّقُونِ)[2] .

وقال تعالى : (فَلاَ تَخْشَوُا النَّاس واخْشَوْنِ) .

وقال تعالى : (يَخافُونَ ربَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ)[3] .

وقال تعالى : (كَذَلِكَ إنمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبادِهِ العُلماءُ)

وقال تعالى : (وَلاَ تَعْمَلونَ مِنْ عَملٍ إلاَّ كُنَّا عَلَيكُمْ شُهوداً إذْ تُفِيضُونَ فِيهِ) .[4]

وقال تعالى : (يَعْلَم مَا فى أنْفسِكُمْ فاحذَرُوهُ)

وقال النبى ﷺ : «خف الله كأنك تراه» .

قال ذلك لابن عباس رضى الله عنه .

فالذى يهيج الخوف حتى يسكن القلب : هو دوام المراقبة لله عز وجل ، فى السر والعلانية ، وذلك لعلمك بأن الله تعالى ، يراك ولا يخفى عليه شيء من حركاتك ظاهراً وباطناً .

---

(١) البقرة : ٤٠ و ٤١ .

(٢) النحل : ٥٠ .

(٣) فاطر : ٢٨ .

(٤) يونس : ٦١ .

فعند ذلك يجل مقامه عليك فى كل حركة ظاهرة وباطنة ، وتحذر أن يرى بقلبك شيئاً مما لايحبه ولايرضاه بالوقوف منك على همك ، إذا كان يعلم ما فى نفسك .

فمن ألزم قلبه فى الحركات كلها أن الله تعالى ، يراه رجع عن كل ما يكره بعون الله ، فطهر قلبه واستنار ، وسكنه الخوف ، ودام حذره من الله ؛ فكان مشفقاً فى جميع الأحوال ، وعظَّمَ أمر الله تعالى فى قلبه[1] ، فلم تأخذه فى الله لومة لائم ، وقلّ وصغر من دون الله فى عينه ممن ضَيَّع أمر الله .

وذكر الخوف يطول ، وهذه الأصول التى من استعملها تؤديه إلى الحقائق .

فهذا ظاهر الخوف ومابقى من صفته أكثر.

---

(١) ومن ذلك : قوله تعالى ، حكاية عن خوف المؤمنين : (قالوا إنا كنا قبل فى أهلنا مشفقين) الطور : ٢٦ .

باب
الصدق فى الحياء من الله عز وجل

يروى عن النبى ﷺ أنه قال : «الحياء : من الإيمان»[1]

وروى عنه ﷺ أنه قال : «الحياء خير كله»[2] .

وقال ﷺ : «استحيوا من الله حق الحياء ، من استحيا من الله حق الحياء ، فليحفظ الرأس وماحوى ، والبطن وما وعى ، وليذكر المقابر والبِلى ، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا»[3]

وقال النبى ﷺ : «استح من الله كما تستحى من رجل صالح من قومك»[4] .

وقال رجل يارسول الله : مانبدى من عوراتنا ومانذر ؟

قال : «استر عورتك إلا من أهلك ومامَلكت يمينك»

قال : فأحدنا يكون خالياً .

---

(١) مسلم والترمذى .

(٢) مسلم وأبو داوود .

(٣) أحمد والترمذى والحاكم والبيهقى فى الشعب عن ابن مسعود .

(٤) هذا مثل تقريبى ، وإلا فالله أكبر ، فالاستحياء منه يجب أن يكون على قدره ، ومع هذا فما أحد قدر الله حق قدره ، لأنه لايحيط بقدره حقيقية إلا هو ، والحديث رواه ابن عدى بنحوه .

قال : « فالله أحق أن يستحى منه » .

وكان أبو بكر رضى الله عنه ، إذا ذهب إلى الخلاء يغطى رأسه ويقول :

« إنى لأستحيى من ربى »

وهذه أخبار تدل كلها على قرب الله عز وجل من القوم ، لأن المستحيى من الله تعالى ، يرى اطلاع الله تعالى عليه . ومشاهدته له فى جميع الأحوال .

قلت : فما الذى يهيج الحياء ؟

قال : ثلاث خصال :

الأولى : تفكيرك فى دوام إحسان الله تعالى ، إليك مع تضييع الشكر منك ، ومع دوام إساءتك وتفريطك .

والثانية : أن تعلم أنك بعين الله عز وجل فى منقلبك ومثواك .

والثالثة : ذكر لوقوفك بين يدى الله عز وجل ، ومساءلته إياك عن الصغير والكبير .

قلت : فما الذى يُشَيِّد الحياء ويقويه ؟

قال : « الخوف لله عز وجل ، عند الهوى الخاطر الواقع فى القلب ! فيفزع القلب ، ويستوحش عندما يعلم أن الله تعالى ، يرى ما فيه فيثبت الحياء من الله[1] ، فإذا دام على ذلك زاد الحياء وقوى »

---

(١) ومن ذلك قوله تعالى : (إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا ، فإذاهم مبصرون) الأعراف — ٢٠١ .

قلت : فالذى يولد الحياء ماهو ؟

قال : الفزع من أن يكون الله تعالى ، عنه معرضاً وله ماقتاً ، ولفعله غير راض .

قلت : فما الغالب على قلب المستحي من ربه ؟

قال : إجلال رؤية ما يراه ، فحينئذ يهاب الله عز وجل ، ويستحي منه .

قال أبو سعيد رحمه الله تعالى : سمعت بعض المريدين سأل بعض أهل المعرفة .

قال : ما علامة هيبة الله فى قلب العارف بالله ؟

قال : إذا استوى عنده الأفعى والذباب .

قلت : فبم يضعف الحياء ؟

قال : بترك المحاسبة وترك الورع .

قلت : فكيف أحوال المستحي فى نفسه ؟

قال : طول الخشوع ودوام الإخبات[1] ، وتنكس الرأس ، وانحصار الطرف ، وقلة النظر إلى السماء ، وكلال اللسان عن كثير من الكلام ، والفزع من التكشف فى الخلاء ، وترك العبث والضحك ، والحياء عند إتيان ما أباحه الله ، فكيف بذكر عارض ، مما نهى الله تعالى عنه ؟

---

(١) خضوع القلب .

والناس يتفاوتون فى الحياء على قدر قرب الله تعالى منهم وقربهم منه ،

باب
الصدق فى معرفة نعم الله تعالى والشكر له

قال الله عز وجل : (وَلَقَدْ كَرَّمنَا بَنِى آدَمَ وحملنَاهمْ فى البَرِّ والبَحْرِ ورَزَقْنَاهم مِنَ الطَّيِّباتِ وفضَّلْناهمْ علَى كَثِيرٍ مِمَّن خَلَقْنا تَفْضيلاً)(١)

وقال تعالى : (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاتحْصُوها)(٢) .

وقال : (اذْكُروا نِعْمَتِىَ التى أَنْعَمتُ عَلَيكُمْ)(٣) .

فإذا أفاق العبد من الغفلة ، فكر ونظر إلى نعم الله تعالى عليه ، وتكاملها قديماً وحديثاً .

فأما نعمه القديمة ، فذكره لك قبل أن تك شيئاً ، وماخصك به من توحيده ، والإيمان به ، والمعرفة له ، فأجرى باسمك القلم فى اللوح المحفوظ مسلماً ، ثم أهلك القرون السالفة ، وجعلك فى شرذمة من المؤمنين ناجية ، حتى أخرجك فى خير أمة ، وأكرم دين ، ومن أمة

---

(١) سورة الإسراء : ٧٠ .

(٢) سورة إبراهيم من الآية : ٣٤ .

(٣) سورة البقرة فى الآيتين : ٤٠ ، ٤٧ .

حبيبه محمد ، ﷺ ، ثم هداك للسنة واستعملك بالشريعة وباعدك من الزيغ والأهواء ، ثم رباك وكلأك وغذاك حتى وجبت عليك الأحكام .

فأغفلت نعمته ، وفرطت فى حفظ وصيته ، وركبت هواك من عمرك حيناً ، وفى كل ذاك لايكافئك بإساءتك ، بل يسترك ، ويحلم عنك ، وينظرك .

ثم عطف عليك بعد ذلك ، بعد ماكنت شروداً فأيقظك من الغفلة ، وعرّفك ما فاتك من حظك من طاعتك ، فوهب لك الإنابة إليه ، وأجلسك على طيّب مرضاته .

فوجب عليك الآن شكر بعد شكر ! فأى نعماه تحصى . وعلى أيها تشكر ؟

ولابد من معرفة الشكر ، ومباشرته .

والشكر على ثلاثة وجوه :

شكر القلب ، وشكر اللسان ، وشكر البدن .

فأما شكر القلب : « فهو أن تعلم أن النعم من الله وحده لامن غيره »

وأما شكر اللسان : « فالحمد والثناء عليه ، ونشر آلائه ، وذكر إحسانه »

وأما شكر البدن : « فلا تستعمل جارحة – أصحها الله تعالى وأحسن خلقها – فى معصية ، بل تطيع الله ، تعالى ، بها »

وكذلك كل ما خوّلك وملكك من الدنيا جعلته عوناً لك على

طاعته . ولم تحوله فى باطل ، ولم تنفقه فى سرف ، ثم تبذل لله عز وجل ذكره وعزّ جَدُّه الخدمة ، وتعطيه الجهد من نفسك .

وهكذا يروى عن النبى ﷺ : « أنه قام حتى تورمت قدماه ؟ فقيل له : يارسول الله ما هذا التعب ؟ أليس قد غفر الله لك ؟ ؟

قال : أفلا أكون عبداً شكوراً »

وقال الله عز وجل : ﴿ٱعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ (١)

وقال تعالى : ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾ (٢)

فإذا بلغ العبد من الشكر لله عز وجل غاية ، انقطع فنظر ، فإذا شكره نعمة من الله تعالى ، تحتاج إلى أن يشكر الله تعالى عليها ، إذ جعله من الشاكرين ، فعمل عند ذلك فى شكر الشكر ! ! ثم كاد يتحير ، تواترت عليه من الله تعالى الألطاف بالبر والكرامات .

وبلغنا أنه فيما ناجى به موسى ، عليه السلام ، ربه ، عز وجل ، قال : « يارب أمرتنى بالشكر على نعمتك ، وإنما شكرى إياك نعمة من نعمك » !

فأوحى الله إليه : « لقد علمتَ العلمَ ، إذ علمتَ أن ذاك منى فقد شكرتنى »

وقال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه : ذكر النعمة شكرٌ ما ، فدلت النعم على محبة المنعم !

---

(١) سورة سبأ من الآية : ١٣ .   (٢) سورة إبراهيم من الآية : ٧ .

باب
الصدق فى المحبة

وقد أجمع الحكماء أنها تستخرج من ذكر النعم .

وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما ، عن النبى ﷺ أنه قال : « أحبوا الله لما يغذوكم من نعمه ، وأحبونى لحب الله ، وأحبوا أهل بيتى لحبى »[1] .

وقال الله ، عز وجل : ﴿والذين آمنوا أشدُّ حبًّا لله﴾[2]

وبلغنى أن الله عز وجل ، أوحى إلى عيسى ، عليه السلام : « ياعيسى بحق أقول لك : إنى أحَبُّ إلى عبدى المؤمن من نفسه التى بين جنبيه » .

وبلغنا عن الحسن البصرى ، رضى الله عنه : أن ناساً قالوا ، على عهد رسول الله ﷺ : « يارسول الله إنا نحب ربنا حبًّا شديداً » فجعل الله تعالى لمحبته علماً وأنزل ، عز وجل :

﴿قل إن كنتم تحبُّون الله فاتبعونى يحببكم الله﴾[3]

---

(١) الترمذى والحاكم عن ابن عباس بسند صحيح .

(٢) سورة البقرة الآية : ١٦٥ .

(٣) سورة آل عمران : ٣١ . وذكر هذا القول عن الحسن بن كثير فى تفسيره .

فمن صدق المحبة : اتباع الرسول ﷺ فى هديه ، وزهده وأخلاقه ، والتأسى به فى الأمور ، والإعراض عن الدنيا وزهرتها وبهجتها ، فإن الله عز وجل جعل محمداً ﷺ علماً ودليلا وحجة على أمته .

ومن صدق المحبة لله تعالى ، إيثار محبة الله عز وجل ، فى جميع الأمور على نفسك وهواك ، وأن تبدأ فى الأمور كلها بأمره قبل أمر نفسك .

وبلغنا أن موسى عليه السلام ، قال : «يارب أوصنى»

قال الله عز وجل : «أوصيك بى» .

قال : «يارب كيف توصينى بك ؟»

قال : «لايعرض لك أمران ؟ أحدهما لى والآخر لنفسك ، إلا آثرت محبتى على هواك» .

فالمحب لله : قد جعل ذكر الله تعالى بقلبه ولسانه فرضاً على نفسه ؛ فهو يتفرغ من الغفلة ويستغفر منها ، وكذلك جوارحه : إنما هى وقف لخدمة من أحبه .

فهو غير ساه ولا لاه وإنما همه أن يُرْضى من أحبه ، فقد بذل المجهود فى موافقته فى أداء فرائضه ، واجتناب مناهيه ، فهو متزين له بكل طاقته ، حذراً من أن يأتى عليه أمر يسقطه من عين من أحبه .

وهكذا روى النبى ﷺ من غير طريق ، أنه قال : «يقول الله عز وجل : ماتقرب إلى عبدى بمثل أداء ما افترضت عليه ، ولايزال يتقرب

إلىّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت له سمعاً وبصراً ويداً ومؤيداً ، دعانى فأجبته ، ونصح لى فنصحت له »[1]

فعلامة المحب : الموافقة للمحبوب ، والتجارى[2] مع طرقاته فى كل الأمور ، والتقرب إليه بكل حيلة ، والهرب من كل مالا يعينه على مذهبه[3]

قلت : فالمحبة على قدر النعم ؟

قال : المحبة بدؤها من ذكر النعم ، ثم على قدر المنعم على قدر مايستحق ؛ لأن المحب لله تعالى يحب الله تعالى — عند النعم ، وعند فقدها ، وعلى كل حال — حبًّا صحيحاً منعه أو أعطاه أو ابتلاه أو عافاه ؛ فالمحبة لازمة لقلبه ، على حالة واحدة ، فى العقد[4] ، ثم هى إلى الزيادة أقرب .

ولو كانت على قدر النعم ، لنقصت المحبة إذا نقصت النعم ، فى وقت الشدائد ووقوع البلاء ، لكن المحب لله تعالى الذى وله[5] عقله بربه ، واشتغل برضاه فكان فى شكره لله وذكره حيران ، كأنه ليس نعمة على أحد إلا وهى عليه ، وهو مشغول بحبه لله عز وجل ، عن كل

---

(١) البخارى بنحوه وفيه هنا زيادات

(٢) التجارى : المسايرة : أى المتابعة

(٣) مذهبه : قصده وطريقته

(٤) العقد : العزم والنية .

(٥) وله عقله : أى ذهب ، والمعنى هنا : اشتد حبه حتى كأنه ذهب عقله .

الخلق ، وقد أسْقَطت المحبة لله تعالى ، عن قلبه الكبر والغل والحسد والبغى ، وكثيرا مما يعنيه من أمر الدنيا من مصلحة ، فكيف يذكر مالا يعنيه ؟ !

قال بعض الحكماء : من أعطى من المحبة شيئاً فلم يعط مثله من الخشية فهو مخدوع .

وروى عن الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى ، أنه قال : الحب أفضل من الخوف .

وحدثنا إسماعيل بن محمد قال : حدثنى زهير البصرى قال : لقيت شعوانة ، فقالت لى : ما أحسن طريقتك ! إلا أنك تنكر المحبة !

قلت : ما أنكرها ؟

فقالت لى : أتحب ربك ؟

فقلت : نعم

قالت : فكيف تخاف ألا يحبك وأنت تحبه ؟ !

قلت : أنا أحبه لما أولانى وماندّانى[1] من معرفته ونعمه ، ولى ذنوب أخاف أن لا يحبنى لما كسبْت[2] !

فغشى عليها ، ثم أفاقت فقالت : زه !

---

(١) ندانى : الندى الجود ، والمعنى هنا : ما أسبغ على من معرفته ونعمه .

(٢) كسب الإثم : أى ارتكبه وتحمله .

قال أبو سعيد رحمه الله تعالى : ما أحسن ماقال هذا الرجل ! هذا كلام صحيح ! !

قال أبو سعيد قدس الله روحه : قال رجل من رفعاء البدلاء : من يحب الله كثير الشأن فيمن يحبه الله .

وبالله التوفيق .

وفى هذا بلاغ لمن أعانه الله تعالى وسدده ، وما بقى من صفات المحبين أكثر !

باب
الصدق فى الرضا عن الله عز وجل

قال الله عز وجل : ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِى أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾[1] .

قال بعض العلماء رحمهم الله تعالى : ماشهد الله تعالى لهم بالإيمان ، حين لم يرضوا بحكم نبيه ، فكيف إذا لم يرضوا بحكمه عز وجل ؟ !

قلت : فما علامة الرضا فى القلب ، وماموجوده ؟ !

قال : سرور القلب بمر القضاء .

(١) سورة النساء : ٦٥ . شجر : وقع من نزاع حرجاً : ضيقا .

وقال بعضهم : الرضا تلقى المصائب بالرجاء والبشر .

وروى عن أنس بن مالك رضى الله عنه . أنه قال : كنت خادم النبى ﷺ فما قال لى لشىء قط لما فعلت أو ألا فعلت ! إنما كان يقول : كذا قضى . وكذا قدر »[1] .

وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال : « ما أبالى على ما أصبحت وما أمسيتُ على ما أحبّ أو على ما أكره . لأنى لا أدرى أيُّهما[2] خير لى »

وقال عمر أيضاً : « لو أنّ الصبر والشكر بعيران لى ما أبالى على أيِّهما ركبت »

فهذا يدلك على الرضا من قول عمر رضى الله عنه ، لأن الصبر لا يكون إلا على ما يكره ، والشكر لا يكون إلا على ما يحب . فقال : لا أبالى أيهما وقع لى ، وذلك لاستواء الحالين عنده .

ويروى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه . أنه قال : « حبذا المكروهات وايم الله ماهو إلا الغنى والفقر . وإن حق كل واحد منهما لواجب إن كان الغنى فإن فيه العطف . وإن كان الفقر فإن فيه الصبر »

---

(١) قضى وقدر : حكم بما سبق فى علمه واقتضاه .

(٢) وفى ذلك يقول النبى ﷺ : (عجباً للمؤمن . حال المؤمن كله خير له : إن أصابته نعماء شكر ، وإن أصابته ضراء صبر) . أو كما قال .

وقال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه : أصبحت ومالى فى الأمور من اختيار .

وقال بعضهم : ومالى من النعم سوى مواقع القدر فى ، كائناً ما كان وكان قد سقى السم ، فقيل له : تعالج ، فقال : لو علمت أن شفائى فى أن أمس أنفى أو أذنى مافعلت .

وقال النبى ﷺ لابن مسعود ، رضى الله عنه : «يابن أم عبد لايكُثُر هَمُّك[1] ، ما يقَدَّرْ يكن ، وماترزق تأكله» .

وقال النبى ﷺ فى قصة طويلة لابن عباس رضى الله عنهما : «فإن استطعت أن تعمل لله بالرضا فى اليقين ، وإلا ففى الصبر على ماتكره : خير كبير»[2] .

أفلا ترى أنه ﷺ دعاه إلى أعلى الحالين .

وقال بعض الحكماء : إذا استتم فى العبد الزهد والتوكل والمحبة واليقين والحياء صح له الرضا .

وهو عندنا كما قال وإلا فهو مع الناس ، أوقات وخطرات[3] على قدر إيمانهم ، ثم يعودون إلى الصبر .

---

(١) همك : كثرة انشغال بالك . والحديث رواه البيهقى فى الشعب وفى القدر بسند ضعيف .

(٢) الترمذى من حديث ابن عباس ورواه أيضاً الطبرانى .

(٣) خطرات : ما يخطر فى القلب من تدبير

وقال بعضهم : الرضا قليل ، ومعول[1] المؤمن الصبر .

فقلت : اشرح لى قول الحكيم : الراضى يتلقى المصائب بالبشر والسرور .

قال : إن العبد لما صدق فى محبته ، وقعت بينه وبين الله تعالى ، المفاوضة والتسليم ، فزالت عن قلبه التهم ، وسكن إلى حسن اختيار من أحبه ، ونزل فى حسن تدبيره وذاق طعم الوجود به ، فامتلأ قلبه فرحاً ونعيماً وسروراً ، فغلب ذلك ألم المصائب والمكروه والبلوى ، فصار اسم البلوى عليه معلقاً ، فيُستخرج منه إذا نزل به أمور كبيرة ، فتارة يتنعم بعلمه به إذا علم أنه يراه فى البلوى ، وتارة يعلم أنه ذكره فابتلاه ، ولم يغفل عنه ، على عظم قدره أن يولى من أمره مافيه الصلاح ، فيراه تارة يشكو إليه شكوى المحب إلى حبيبه ، وتارة يئن إليه ؛ وتارة يطمع أن يراه راضياً عنه[2] .

فهكذا قال جل ذكره : ﴿يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ، ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾[3] .

فالرضا تعجله العقلاء عن الله عز وجل ، فى الدنيا قبل الآخرة ، فخرجوا من الرضا إلى الرضا .

---

(١) معول المؤمن : سلاح المؤمن .

(٢) ومن ذلك قوله ﷺ بعد أن شكا إليه ضعفه وقلة حيلته وهوانه على الناس : (اللهم إن لم يكن بك غضب علىّ فلا أبالى) .

(٣) سورة الفجر : ٢٧ ، ٢٨ .

وهكذا قال عز وجل : (رَضِيَ اللهُ عَنهُمْ وَرَضُوا عَنهُ ، وأعَدَّ لَهمْ جنَّات) الآية .

فقد ذكرنا بعض صفات الراضين من ظاهر ما أمكن أن يذكر مثله فى كتاب ، ومايق من صفاتهم أكثر .

وبالله التوفيق .

باب
الصدق فى الشوق إلى الله عزّ وجلّ

روى عن النبى ﷺ أنه كان يقول فى دعائه : «اللهم إنى أسألك لذة العيش بعد الموت ، والنظر إلى وجهك ، والشوق إلى لقائك» .

وروى عن أبى الدرداء ، رضى الله عنه ، أنه كان يقول : «أحب الموت اشتياقاً إلى ربى»

وروى عن حذيفة رضى الله عنه ، أنه قال عند الموت : «حبيب جاء على فاقة[1] ! ! لا أفلح من ندم» .

وروى عن شهر بن حوشب رضى الله عنه ، أنه قال : «أخذت معاذ ، رضى الله عنه قرحة فى حلقه ، فقال اخنق[2] خنقك ، فوعزتك إنى أحبك» .

---

(١) الفاقة : شدة الحاجة إلى الشىء . (٢) اخنق خنقك : أى اقبض الروح .

وكان على بن سهل المدائنى رحمه الله ، يقوم إذا هدأت[1] العيون ، فينادى بصوت له محزون : « يامن اشتغلت قلوبُ خلقه عنه بما يعقبهم عنه لقائه ندماً ، ويامن سهت قلوب عباده عن الاشتياق إليه ، إذ كانت أياديه[2] إليهم قبل معرفتهم به » ثم يبكى حتى تبكى لبكائه جيرته ، ثم ينادى : « ليت شعرى سيدى إلى متى تحبسنى[3] ! ابعثنى سيدى إلى حسن وعدك ، وأنت العليم أن الشوق قد برح بى ، وطال على الانتظار » ثم يخر مغشياً عليه ، فلايزال كذلك حتى يحرك لصلاة الصبح .

وكان الحارث بن عمير رحمه الله ، يقول إذا أصبح : أصبحت ونفسى وقلبى مصر على حبك سيدى ، ومشتاق إلى لقائك ! فعجل بذلك قبل أن يأتينى سواد الليل ، فإذا أمسى قال مثل ذلك ، فلم يزل على مثل هذا الحال ستين سنة .

فالمشتاق إلى الله تعالى ، هو المتبرم[4] بالدنيا والبقاء فيها ، وهو محب للموت وانقضاء المدة والأجل .

ومن علامته التوحش[5] من الخلق ، ولزوم العزلة والانفراد

---

(١) هدأت العيون : نامت .

(٢) أياديه : نعمه .

(٣) تحبسنى : تقضى بيقائى .

(٤) المتبرم الضجر .

(٥) التوحش : النفور .

بالوحدة ، ومن شأنه القلق والحنين والحزن والنحيب [١] والكمد [٢] والغصة [٣] المنكسرة فى الصدر بشدة الشغف [٤] والكلف [٥] والهذيان [٦] بذكر المحبوب ، والارتياح إليه ، والفكرة الصافية بهيجان الهمة [٧] ، وجولان [٨] الروح فى الغيوب ، لطلب اللقاء والبهت [٩] ، والدهش والحيرة عند توهم الظفر بالأمل من المأمول ، ونسيان حظه من الدنيا والآخرة ، إلا رؤية من هو إليه مشتاق ، نعم ، ثم يعارضه الآن الخوف الذى هو الخوف أن لا يصل إلى محبوبه ، ويخاف أن يقطع به دونه ، ويحال بينه وبينه ، ويحجب [١٠] عنه ، ثم يخاف أن تحدث حادثة ، إذ كان فى دار البلوى ، فقد طالت عليه الأيام والليالى إلى أن يخرج من الدنيا سالماً على الأمر الذى يرضى مولاه .

---

(١) النحيب البكاء .

(٢) الكمد : الحزن المكتوم .

(٣) مايقف فى الحلق من طعام وشراب .

(٤) الشغف : الهوى الشديد .

(٥) الحب والولع .

(٦) الهذيان : الذى يخلط ويتكلم بمالا ينبغى .

(٧) هيجان الهمة : هدة العزيمة .

(٨) جولان الروح : طوفان الروح .

(٩) البهت : الدهش والتحير .

(١٠) يحجب : يمنع .

فهذا بعض مايمكن ذكره من صفات المشتاقين . ومايق من نعتهم[1] أكثر .

وبالله التوفيق .

باب
الصدق فى الأنس بالله ، تعالى ، وبذكره وقربه

قال بعض الحكماء : الأنس بالله . جل ثناؤه : أرق وأعذب من الشوق . لأن المشتاق : كان بينه وبين الله تعالى . مسافة خفيفة لعلة شوقه . والمستأنس أقرب من الله . عز وجل[2] .

وهكذا روى عن النبي ﷺ حين أتاه جبريل عليه السلام . فى صورة رجل . فسأله عن الإسلام والإيمان . ثم سأله عن الإحسان . فقال له النبي . ﷺ : « أن تعبد الله كأنك تراه . فإن لم تكن تراه فإنه يراك . فقال له : صدقت ! » .

وروى عن النبي ﷺ أنه قال لابن عمر . رضى الله عنه : « اعبد الله كأنك تراه . فإن لم تكن تراه فإنه يراك »[3]

---

(١) نعتهم : وصفهم .

(٢) وقد بين النبى ﷺ مظنة القرب ، فقال : « أقرب مايكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا من الدعاء فقمن أن يستجاب لكم » .

(٣) رواه الشيخان .

وإنما دله على قرب الله عز وجل ، وقيامه عليه ، ومن قرب الله تعالى ، تُستَخْرج حقائق الأمور فى كل مقام .

فمن كان مقامه الخوف ، أدركه من قرب الله تعالى — حين علم أنه يراه — الحذرُ ، والفَرقُ[1] ، والخشية[2] .

ومن كان مقامه المحبة ، أدركه من حقائق قرب الله تعالى حين علم أنه يراه الفرح والسرور والنعيم والمسارعة فى طلب رضاه والقربة ليراه منافساً راغباً ، يريد القربة إليه ، والمبالغة فى محبته .

والصابر فى وقت بلواه ومصيبته ومايتحمله لسيده : مما يقربه من ثوابه ، حين سمع الله عز وجل يقول : (إنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ)

وقال تعالى : (وَاصْبِر لحكْمِ رَبِّكَ فَإنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)[3] .

سَهُل عليه عند ذلك معالجة الصبر واحتمال مؤنته .

وكذلك أهل كل مقام عبدوا الله تعالى على القربة ، وذلك حين أيقنوا وهم الذين لايكادون يصلون ولايرجعون .

وأما العامة من الناس فإنهم عملوا على ماانتهى إليه من الأمر والنهى ، على رجاء ضعيف فخلطوا ولم يحققوا ! .

فمن صدق الأنس مايروى عن عروة بن الزبير رحمة الله عليه : أنه

---

(١) الفرق : الخوف .

(٢) الخشية : الخوف عن علم ، قال الله تعالى : (إنما يخشى الله من عباده العلماء) .

(٣) سورة الطور : ٤٨ .

خطب إلى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، ابنته ، وهو يطوف ببيت الله الحرام ، فلم يجبه ابن عمر ، ولم يرد عليه جواباً ، ثم لقيه عبد الله بعد ذلك ، فقال له : «إنك كلمتنى فى الطواف ونحن نتخيل الله بين أعيننا» .

فالمستأنس : كأنه ينظر إلى مااشتاق إليه المشتاق :

ويروى عن عبد الواحد بن زيد البصرى رحمه الله تعالى ، أنه قال لأبى عاصم الشامى رضى الله عنه ورحمه : أما تشتاق إلى الله تعالى ؟

قال : «لا» إنما تشتاق إلى غائب ، فإذا كان الغائب شاهداً فإلى مَنْ تَشْتاق ؟» فقال عبد الواحد : سقط الشوق :

وروى عن داود الطائى ، رحمه الله تعالى – وكان من المسلمين الذين أجمعوا على صدقه وعدالته – قال أيضاً : «إنما تشتاق الغائب» .

قال بعض العلماء رحمه الله : وإنما قالوا : هذا من حقائق الوجود لقرب الله عز وجل ، كأنهم معه ، إذ كان معهم شاهداً لايغيب ، وذلك من الله تعالى تسكين وتطمين . ورحمة وراحة ، عجلها لهم فى الدنيا ، وإلا فما الذى وصل إليهم من الله عز وجل من قربه ؟ !

فن علامة المستأنس بالله تعالى ، وبقربه أن يكون واجداً[1] لذكر الله عز وجل فى قلبه ، واجداً لقربه منه لايفقده على كل حال ، وفى كل

---

(١) واجداً : المقصود هنا الموجود ضد المعدوم .

وقت وكل موطن[1] ، ويكون الله عز وجل وقربه السابق إليه قبل الأشياء ، وذلك إذا سكن قلبَه نورُ قرب الله تعالى منه ، فبه ينظر إلى الأشياء ، وبه يستدل على الأشياء[2] .

وهكذا يروى عن عامر بن عبد الله ، رضى الله عنه ، أنه قال : «مانظرت إلى شيء قط إلا كان الله تعالى أقربَ إليَّ منه» .

ومن صفات المستأنس : أن يكون متبرماً بالأهل والخليقة كلهم ، مستعذباً[3] للخلوة والوحدة ، ويكون فى البيت المظلم متبرماً بالمصباح إذا رآه ، بل يجيف بابه[4] ويسبل ستره ويواحد قلبه ، ويألف مليكه ، فيكون به أنيساً ، وبمناجاته متنعماً ، ويكون متفرغاً من طارق يطرقه فينغص عليه خلوته ، ثم تراه مستوحشاً من ضوء الشمس إذا دخل عليه فى صلاته ، ويتثاقل تلقاء[5] الخلق ويملهم ، ويكون لقاؤهم ومجالستهم عليه غراماً[6] وخساراً ، فإذا جنه الليل[7] ، ونامت العيون وهدأت

---

(١) الموطن : الوطن (المكان) .

(٢) وفى الحديث القدسى الصحيح : « فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها . . » متفق عليه .

(٣) مستعذباً : واجداً لها حلاوة .

(٤) يجيف بابه : يغلق بابه .

(٥) تلقاه : تجاه (قباله) .

(٦) غراماً : غُرماً

(٧) جنه الليل : ستره .

الحركات ، وسكنت حواس الأشياء[1] ، خلا عند ذلك بينه [2] . فهاج شجوه[3] ، وتصاعدت أنفاسه ، وطال أنينه ، وتنجز الموعود من مأموله ، وماقد غذاه من فوائده وألطافه ، فظفر عند ذلك ببعض سؤله ، وقضى بعض أوطاره[4] .

وكذلك المستأنس : تذهب عنه الوحشة فى المواطن التى يفزع فيها الناس ، فيستوى عنده العمران والخراب والقفار[5] ، والجماعة والوحدة ، وذلك الذى استولى عليه من قرب الله عز وجل ، وعذوبة ذكره ، ويغلب ماسواه من العوارض الظاهرة والباطنة .

فهذا ظاهر الأنس الذى يمكن أن يذكره ، ومابقى من مقامات الأنس أكثر وأعز من أن يكون فى كتاب ، إلا أن يجرى منه شىء عند المذاكرة مع أهله .

وبالله التوفيق .

---

(١) سكنت حواس الأشياء مبالغة فى السكون .

(٢) البث : المناجاة المبثوثة بالزفرات .

(٣) الشجوة : الوجد .

(٤) قضى بعض أوطاره : نال بعض بغيته ، ومصداق ذلك قوله تعالى « وتبتل إليه تبتيلا » .

(٥) القفار : الجرداء .